حرف العين

مفاخرة بين الزّبرقان وحسّان

«وكان وفد على رسول اللّه ﷺ، وفد بني تميم سنة الوفود، بعد فتح مكّة، فيهم عطارد بن حاجب بن زرارة، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، ونعيم بن زيد، وعتبة بن حصن بن حذيفة بن بدر، والأقرع بن حابس في لفّهم ولفيفهم، ودخلوا المسجد، ونادوا رسول اللّه ﷺ، من وراء حجراته أن اُخرج إلينا يا محمد، فتأذى رسول اللّه ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد! جئناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: «قد أذنت لخطيبكم، فليقل»، فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد للّه الذي له علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل منها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عدداً، وأشدّه عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددناه، وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنّا تنحينا عن الإكثار، وأقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس. فقال رسول اللّه ﷺ لثابت بن قيس الخزرجي: «قم فأجب الرجل في خطبته»، فقام ثابت بن قيس فقال: الحمد للّه الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهنّ أمره ووسع كرسيّه علمه، ولم يكن شيء قط إلّا من فعله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، وكان خيرة العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول اللّه المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب اللّه حين دعاه رسول اللّه ﷺ، فنحن أنصار اللّه ووزراء رسول اللّه نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن باللّه ورسوله متّع بماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في اللّه أبداً وكان قتله علينا يسيراً، أقول هذا، وأستغفر اللّه

لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. فقام الزبرقان بن بدر التميمي فقال»:

[من البسيط]

نَحْنُ الكِرَامُ، فلا حيٌّ يُعادِلُنَا
مِنّا المُلوكُ، وفينا يُقسَمُ الرُّبُعُ(١)
وكم قَسَرْنَا مِنَ الأحْياء كلّهِمُ
عِنْدَ النِّهابِ، وَفَضْلُ العِزّ يُتّبَعُ
ونحنُ نُطْعِمُ عندَ القحْطِ مَطعَمَنَا
مِنَ الشّوَاءِ، إذا لمْ يُؤنَسِ القَزَعُ(٢)
ثمّ تَرَى النّاسَ تَأتِينا سَرَاتُهُمُ
مِنْ كلّ أرْضٍ هُوِيّاً ثمّ نَصْطَنِعُ(٣)
فَنَنْحَرُ الكُومَ عَبْطاً في أرُومَتِنا
للنّازِلِينَ، إذا ما أُنْزِلوا شَبِعُوا(٤)
فَلا تَرانَا إلى حَيٍّ نُفاخِرُهُمْ
إلّا اسْتقادُوا وكانوا الرّأسَ يُقتَطَعُ(٥)

(١) الرُّبع: أي ربع الغنائم، وكان يأخذه رئيس القبيلة في الجاهليّة.
(٢) يُؤنس: يُرى. القَزَع: قِطَع السّحاب المتفرّقة. والمعنى. أنهم يُطعمون أيام القحط وقلّة المطر.
(٣) سَراتهم: أشرافهم أو أسيادهم. هُوِيّاً: مسرعين. نصطنع: بمعنى نصنع، أي نصنع المعروف.
(٤) الكُوْم: مفردها كوماء، وهي النّاقة الضّخمة. الأرومة: الأصل. والمعنى، أنهم ينحرون الكوم عَبْطاً أي من غير علّة فيها إكراماً للضّيف.
(٥) استقادوا: سألوا أن يُقاد القاتل بالقتيل، أي يُقتل القاتل بدل القتيل.

إنّـا أبَـيْـنَـا، ولـم يَـأبَ لَـنَـا أحَـدٌ
إنّـا كَـذَلِـكَ عِـنْـدَ الـفَـخْـرِ نَـرْتـفِـعُ
فَـمَـنْ يُـقـادِرُنَـا فـي ذَاكَ يَـعْـرِفُـنَـا
فَـيَـرْجِـعُ الـقَـوْمُ والأخْـبَـارُ تُـسـتَـمَـعُ

«وكان حسّان بن ثابت غائباً، فبعث إليه رسول اللّه ﷺ، قال حسّان: فلمّا جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم خرجت إلى رسول اللّه، وأنا أقول»: [من الطويل]

مَـنَـعْـنـا رَسـولَ الـلّـه، إذ حَـلَّ وَسْـطَـنـا
عَـلـى أنْـفِ راضٍ مِـنْ مَـعَـدٍّ وَرَاغِـمِ
مَـنَـعْـنَـاهُ لـمّـا حَـلّ وَسْـطَ بُـيُـوتِـنَـا
بـأسْـيَـافِـنـا مِـنْ كـلّ بـاغٍ وظـالِـمِ

«قال: فلمّا انتهيت إلى رسول اللّه ﷺ، وقام شاعر القوم فقال ما قال: عرضت في قوله، وقلت على نحو مما قال، فلمّا فرغ الزبرقان بن بدر من قوله، قال رسول اللّه لحسّان: «قم يا حسّان فأجب الرجل فيما قال»، فقال حسّان»: [من البسيط]

إنّ الـذّوَائِـبَ مِـنْ فِـهْـرٍ وإخـوَتِـهـمْ
قَـدْ بَـيَّـنُـوا سُـنّـةً لـلـنّـاسِ تُـتّـبَـعُ
يَـرْضَـى بـهَـا كـلُّ مَـنْ كـانَـتْ سـرِيـرَتُـهُ
تَـقْـوَى الإلٰـهِ وَبـالأمْـرِ الـذي شـرَعُـوا
قَـوْمٌ إذا حـاربُـوا ضـرّوا عَـدُوَّهُـمُ
أوْ حـاوَلـوا الـنّـفْـعَ فـي أشـيـاعِـهِـمْ نَـفـعُـوا
سـجِـيّـةٌ تـلـكَ مـنـهُـم غـيـرُ مُـحْـدَثَـةٍ
إنّ الـخـلائِـقَ، فـاعْـلَـمْ، شـرُّهـا الـبِـدَعُ

لا يَـرْقَـعُ الـنّـاسُ مـا أوْهَـتْ أكـفُّـهُـمُ
عِـندَ الدّفـاعِ، ولا يـوهـونَ مـا رَقَـعُـوا[١]
إنْ كـان فـي الـنّـاس سبّـاقـون بـعْـدَهُـمُ
فـكُـلّ سَـبْـقٍ لأدْنَـى سَـبْـقِـهـمْ تَـبَـعُ
وَلَا يَـضَـنُّـونَ عَـنْ مـوْلًى بِـفَـضْـلِـهِـمُ
وَلا يُـصِـيـبُـهُـمُ فـي مَـطْـمَـعٍ طَـبَـعُ[٢]
لا يـجـهـلـونَ، وَإنْ حـاوَلـتَ جَـهَـلَـهُـمُ
فـي فَـضْـلِ أحـلامِـهِـمْ عـن ذاكَ مُـتّـسَـعُ
أعِـفّـةٌ ذُكِـرَتْ فـي الـوَحـيِ عِـفّـتُـهُـمْ
لا يَـطْـمـعـونَ، وَلا يُـرْديـهـمُ الـطّـمَـعُ
كـم مِـنْ صَـديـقٍ لـهـمْ نـالـوا كـرَامَـتَـهُ
ومِـنْ عَـدُوٍّ عَـلـيـهـمْ جـاهـدٍ جـدعُـوا
أعْـطَـوْا نـبـيَّ الـهُـدى وَالـبِـرّ طـاعَـتَـهُـمْ
فـمَـا وَنَـى نَـصْـرُهُـمْ عـنْـهُ وَمـا نَـزَعُـوا
إنْ قـال سيـرُوا أجَـدُّوا الـسّـيـرَ جُـهـدَهُـمُ
أوْ قـالَ عـوجـوا عَـلَـيْـنَـا ساعـةً، رَبَـعُـوا[٣]
مـا زَالَ سَـيْـرُهُـمُ حَـتّـى ٱسـتـقـادَ لـهـمْ
أهْـلُ الـصّـلـيـبِ، ومَـنْ كـانـتْ لـهُ الـبِـيَـعُ

(١) يَرْقَع: يُصْلِح. والمعنى، أنهم قوم أعزّة.
(٢) الطَّبَع: الدَّنَس أو العَيْب.
(٣) رَبَعوا: أقاموا في المكان.

خُذْ مِنهُمُ ما أتى عفْواً، إذا غَضِبُوا
ولا يكُنْ همُّكَ الأمرَ الذي مَنَعُوا
فإنّ في حَرْبِهم، فاتْرُكْ عداوَتَهُمْ
شَرّاً يُخَاضُ علَيْهِ الصّابُ والسَّلَعُ(١)
نَسْمُو إذا الحرْبُ نالَتْنا مَخالِبُها
إذا الزّعَانِفُ مِنْ أظفارِها خَشَعُوا
لا فَخْرَ إنْ هُمْ أصَابوا مِنْ عَدُوّهِمُ
وَإنْ أُصِيبُوا فَلا خُورٌ وَلا جُزُعُ
كأنّهُمْ في الوَغى، وَالمَوْتُ مُكتَنِعٌ
أُسْدٌ بِبِيشَةَ في أرْسَاغِهَا فَدَعُ(٢)
إذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لا نَدِبُّ لهُمْ
كما يَدِبُّ إلى الوَحْشِيّةِ الذَّرَعُ(٣)
أكْرِمْ بقَوْمٍ رَسولُ اللَّهِ شِيعتُهُمْ
إذَا تَفرّقَتِ الأهْوَاءُ وَالشِّيَعُ
أهْدَى لهُمْ مِدَحي قَوْمٌ يُؤازِرُهُ
فِيما يُحِبُّ لِسَانٌ حائِكٌ صَنَعُ

(١) الصّاب والسَّلَع: شجر مرّ.
(٢) مُكْتَنِع: قريب أو دانٍ. بيشة: موضع مأسدة. الرُّسغ: المفصل ما بين السّاعد والكفّ أو السّاق والقدم، ومثل ذلك من الدّابة. الفَدَع: عِوَج في المفاصل كأنها زالت عن موضعها أو إعوجاج الرُّسغ.
(٣) الذَّرع: ولد البقرة الوحشية، وقيل: إنما يكون ذَرَعاً إذا قوي على المشي.

فـإنّـهُـمْ أفـضَـلُ الأحْـيَـاء كـلّـهِـمُ
إنْ جَدّ بالناسِ جِدُّ القوْل أوْ شمعُوا[١]

فلمّا فرغ حسّان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس: وأبي إنّ هذا الرجل لمؤتى له[٢]، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلمّا فرغ القوم أسلموا وجوّزهم[٣] رسول اللّه ﷺ، فأحسن جوازهم.

نَحْنُ نَشَاوَى

[من الطويل]

أرِقْتُ لـتَـوْمـاضِ الـبُـرُوقِ الـلّـوَامِـعِ
وَنَـحْـنُ نَـشَـاوَى بـيـنَ سَـلْـعٍ وفَـارِعِ[٤]
أرِقْـتُ لـهُ، حَـتّـى عَـلِـمْـتُ مَـكـانَـهُ
بـأكْـنـافِ سَـلْـعٍ، والـتِّـلاعِ الـدَّوافـعِ[٥]
طَـوَى أبـرَقَ الـعَـزّافِ يَـرْعُـدُ مَـتـنُـهُ
حَنِينَ المَتالي، نحوَ صَوْتِ المُشايعِ[٦]

---

(١) شمعوا: لعبوا ومزحوا.
(٢) مؤتى له: موفق.
(٣) جوّزهم: أعطاهم جوائز.
(٤) توماض: بمعنى وميض أي لمعان. سَلْع: إسم جبل. فارع: إسم حِصْن حسّان بن ثابت.
(٥) التِّلاع: مفردها تلعة، وهي الأرض المرتفعة. الدّوافع: التي تدفع السّيل.
(٦) طوى: قطع. أبرق العزّاف: موضع. المتالي: الإبل معها أولادها، المُشايع: الدّاعي.